الأستاذ ابراهيم فقيه

لبنان ما بين غورو و ماكرون

ماية عام مرّت على إعلان ما يسمى بدولة لبنان الكبير، بمساحة عشرة آلاف وأربعماية وإثنان وخمسون كيلو متر مربع، حيث ضمّ هذا الكيان جبل لبنان الذي كان تحت حكم المتصرفية ، والشمال، والجنوب، والبقاع التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية . وبعد الحرب العالمية الأولى الممتدة من العام 1914 حتى العام 1918 وإنتصار الحلفاء بقيادة فرنسا وانكلترا على دول المحور وإنتهاء الإمبراطورية العثمانية المتهاوية، أطلق وزيرا خارجية انكلترا وفرنسا ما سمي بمعاهدة "سايكس بيكو" وخضع لبنان خلالها لسلطة الإنتداب الفرنسي مع سوريا، بينما خضعت فلسطين ومعها الأردن و العراق لسلطة الحكم البريطاني. وتمت خديعة الشريف حسين بعد أن وُعد من قبل الحلفاء بحكم الجزيرة العربية وباقي البلاد المحيطة بها. وانتفضت الشعوب العربية مطالبة بالإستقلال في العراق ثورة 1920 وفي سوريا وفي الجنوب اللبناني وبقاعه مع شخصيات وطنية في الشمال والبقاع وبيروت.

ولما فشلت الثورة السورية المؤيدة من قوى لبنانية كانت تتطلع لإقامة الدولة العربية برئاسة فيصل ابن الشريف حسين ، وتغلّب الجيش الفرنسي على الإنتفاضة التي قادها عبر المقاومة الممثلة بأدهم خنجر وصادق حمزة ورفاقهما، إنتهت بإعدامهما. كذلك لم تنجح ثورة ميسلون في سوريا واستشهد يوسف العظمة ورفاقه، بعد ان وضعت فرنسا ثقلها العسكري لإنهيار الثورة السورية . وفي هذا الوقت كانت الصهيونية العالمية التي سعت كثيراً لدى السلطة العثمانية لوضع يدها على فلسطين واستفادت من وعد "بلفور" وزير خارجية بريطانيا بإقامة وطن قومي

لليهود حيث مهّدت الدولة البريطانية المنتدبة على فلسطين والتي سهلت قدوم اليهود ومنظماتهم الإرهابية وتسليحها ومساعدتها للقضاء على حركة المقاومة بقيادة عبد القادر الحسيني وغيره من الثوار، بعد أن ارتكبت الهاجانا وغيرها من المنظمات الصهيونية المجازر المتوحشة في دير ياسين والبلدان الفلسطينية الأخرى ، وترافق ذلك مع إنهزام الأنظمة العربية، وقيام ما يسمى بدولة اسرائيل عام 1948 وبدأت رحلة العذاب الفلسطيني، كذلك مشوار الآلام اللبنانية من عدوانية هذا الكيان، إذ دفع لبنان بعد فلسطين الثمن الأكبر من الأطماع الصهيونية ، وكان لبنان قد حصل على إستقلاله عام 1943 أي بعد ثلاثة وعشربن سنة من إعلان كيانه تحت وصاية الإنتداب الفرنسي، الذي هيّأ دستورياً وإدارياً ومؤسساتياً لقيام دولة الإستقلال، وعلى الطريقة اللبنانية إتفق الرئيسان بشارة الخوري ورياض الصلح وممثلي الطائفية و المذهبية على ما يسمى بالميثاق الوطني المتضمن لأعراف تلبي مصالحهم الخاصة دون أن تكون مبيّنة في الدستور اللبناني.

ولم ينقض خمسة عشر عام على الإستقلال حتى قامت إنتفاضة بل ثورة ضد الرئيس كميل شمعون الذي دخل آنذاك حلف بغداد في وقت كانت الناصرية تجتاح العالم العربي شعبياً، حتى تولى رئاسة جمهورية لبنان اللواء فؤاد شهاب الذي أسس لقيام مؤسسات الدولة التي لازال لبنان الاداري يتكئ على بقاياها.

بعدها بخمسة عشر ونيّف من السنين تحوّل النزاع بين أفرقاء الحكم والقوى السياسية والحزبية وإنعكاس الصراع الإقليمي والقضية الفلسطينية الى حرب أهلية استمرت أيضاً لخمسة عشر عام لم توقفها مؤتمرات جنيف ولوزان ولا الشاذلي القليبي والقادم من مؤتمرات القمة العربية ولجانها، ولا فيليب الحبيب القادم من أميركا ... وتصاعدت وتيرة الحرب والتهجير وسيطرت الميليشيات على الأرض والمناطق، وظهر ما سمي بأمراء الحرب بعد مئات الآلاف من الضحايا (قتلى

وجرحى ومعاقين)، ودخلت قوات الردع العربية التي لم يبق منها الا الجيش السوري. وفي هذه الفترة كان العدو الإسرائيلي قد غزا لبنان وصولاً الى عاصمته بيروت عام 1982، بعد أن كان اجتياح الجنوب 1978 وأبقى ما سمي "بجيش لبنان الجنوبي " الذي عرف فيما بعد بجيش العميل انطوان لحد، وكانت الحرب اللبنانية تفعل فعلها بأبشع الوسائل بين اللبنانيين المنقسمين يميناً ويساراً، عروبيين وانعزاليين، مسلمين ومسيحيين، مبتدعين طريقة القتل على الهوية وبين أناس يدافعون عن القضية الفلسطينية كونها أم القضايا العربية وبين من ناصبوا العداء للفلسطينيين وللعروبة، وكانت بحق حرباً طائفية بغيضة استمرت خمسة عشر عام ، الى أن انعقد مؤتمر الطائف برعاية سعودية سورية و توافق دولي أسفر عن إتفاق تحوّل الى دستور جديد للبلاد.

بعد اسبوعين من إنتخاب رينيه معوّض كأول رئيس للجمهورية بعد الطائف تمّ تفجيره، وانتخب الياس الهراوي، وبعد مدة تصاعدت الفوضى بسبب الغلاء وإرتفاع أسعار الدولار الأميركي ، الأمر الذي أدى الى مجيء رجل السعودية رفيق الحريري رئيساً للوزراء ، وبدأت ما يسمى بالجمهورية الثانية والتي أدت الى إنفراج إقتصادي واستقرار أمني في الداخل، بالرغم من الحربين الاسرائيليتين على لبنان . الاولى في العام 1993 والثانية في العام 1996 التي انتهت بجهود الرئيس حافظ الأسد وصمود المقاومة والأهالي بتفاهم نيسان الذي حقق شروط المقاومة والدولة اللبنانية، حيث كان للرئيس رفيق الحريري دوراً أساسياً هاماً في عواصم القرار، فرسم هذا التفاهم معادلة جديدة بين المقاومة والعدو الإسرئيلي. الى أن كان عام 2000 ، عام التحرير وإندحار العدو الصهيوني وعملائه في الخامس والعشرين من أيار الذي اضحى عيداً للتحرير.

مرّت خمس سنوات أخرى من العزة والرفاه والإطمئنان والعيش الرغيد لدى أكثرية اللبنانيين الى أن تمّ اغتيال الرئيس الحريري في الرابع عشر من شهر شباط 2005، وكان له أثر الزلزال، وانقسم البلد بين الثامن والرابع عشر من آذار. وتمّ إنسحاب الجيش العربي السوري من كافة الأراضي اللبنانية . وبعد عام ونيّف اجتاح العدو الإسرائيلي الجنوب بعد أن دمرت طائراته البنى التحتية وصولاً الى أطراف البقاع وأقصى الشمال ناهيك عن الجبل والعاصمة دون أن يحقق تقدماً عسكرياً على الأرض بفضل صمود المقاومة وتصدّيها لآلياته العسكرية ، بعد أن تهجّر حوالي مليون شخص عادوا في يوم واحد فور إعلان وقف إطلاق النار يوم الرابع عشر من أب بفرحة كبرى، رغم الدمار الذي حلّ ببيوتهم وممتلكاتهم . هذه الفرحة كانت توازي فرحة التحرير قبل ستة أعوام.

ولم تمض مدة طويلة حتى عمدت حكومة السنيورة المبتورة بسبب إنسحاب الوزراء الشيعة منها لإستهداف نظام إتصالات المقاومة وحزب الله ، فحصل السابع من أيار الذي وضع حداً للتمادي، دون أن ننسى هنا الدور الوطني المساند لحق المقاومة لرئيس الجمهورية الذي سمي بالمقاوم الرئيس العماد أميل لحود.

حصل مؤتمر الدوحة برعاية من أمير دولة قطر الذي كان قد ساهم مساهمة فعلية في إعادة إعمار ما هدمته اسرائيل في العام 2006، ووقع السياسيون إتفاق الدوحة الذي أوصل قائد الجيش العماد ميشال سليمان الى رئاسة الجمهورية .

ضاع اللبنانيون بين نظام بدأ يفقد ميزته وتمايزه، وتتالت السقطات الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، وانكشف الفساد المعشعش في الإدارات العامة وكافة مؤسسات الحكم ، ولم تكن أزمة النفايات الا الدليل الأصغر على فساد الطبقة السياسية و عجزها الكامل عن إدارة شؤون البلاد و العباد .

فاحت روائح نهب المال العام وإستغلال المراكز و المناصب وازدياد الثروات واستمرار أزمة الكهرباء دون حل منذ ثلاثين عام ، بالرغم من المليارات الطائلة التي استنزفتها والتي يمكن أن تكفي لإنارة قارة بأكملها . كذلك رائحة الهندسات المالية برعاية البنك المركزي وحاكميته المستمرة منذ حوالي الثلاثة عقود. الى أن انفجر الشعب في وجه السلطة التي لم تفعل شيئاً لوقف الإنهيار منذ أكثر من عشرين سنة ... وحصلت الإنتفاضة الشعبية من كافة الفئات وجميع المناطق بشكل لم يعرفه تاريخ لبنان وكان ذلك في 17 تشرين الأول 2019.

استقال رئيس الحكومة سعد الحريري تحت وطأة الإنتفاضة العارمة بعد أيام من إنطلاقتها، وبدأت كرة الإنهيار تتدحرج بسرعة فائقة، حيث كشف الغطاء عن فضائح المصارف التي توقفت نسبياً عن دفع أموال المودعين خاصة بالعملة الصعبة، بعد أن هرّبها أصحاب المصارف ومجالسها الإدارية وشركائهم من السياسيين وأصحاب رؤوس الأموال المتواطئين معهم الى الخارج، فانهارت الليرة اللبنانية بعد استقرار مصطنع لها مقابل الدولار الأميركي لثلاثين عام. وأقفلت أكثر المؤسسات والمعامل أبوابها ، وفقد العدد الكبير من اللبنانيين أعمالهم وبات أكثر من نصفهم تحت خط الفقر ، وانهارت الطبقة الوسطى التي تشكّل عادة ضمانة التوازن في المجتمع. وزاد وباء "كورونا" الطين بلّة وانهارت البلاد سياسياً واقتصادياً ومالياً واجتماعياً الى أن كان الرابع من آب حيث دوّى الإنفجار الكبير كالزلزال وفعل فعله كالقنبلة النووية، ودمّر جزءاً كبيراً من العاصمة بيروت وضواحيها، دون أن يرف جفن للطبقة السياسية : مئات القتلى ، آلاف الجرحى، عشرات آلاف المنازل المتضررة، والمهجرين . فضاع حلم الكثيرين بالتغيير وضاع الوطن في متاهات حكامه. في وقت يتلهى العرب في سباق التطبيع مع العدو الإسرائيلي والعالم يلهث وراء وباء كورونا ، الى أن أطل بصيص أمل تراءى من المبادرة الفرنسية المشروطة بالإصلاح ومحاربة الفساد والهدر والسرقة الى جانب الشروط

التعجيزية لصندوق النقد الدولي والضربات الأميركية الموجهة بشروطها عبر العقوبات المفروضة على لبنان تحت عنوان مواجهة الإرهاب.

هذه المبادرة التي أطلقها الرئيس الفرنسي ايمانويل ماكرون والتي لم تستطع حتى الآن أن تجد لها مكاناً مريحاً في ظل دهاء السياسيين اللبنانيين وجشعهم وأسلحتهم الطائفية والمذهبية الفتاكة.

في الذكرى المئوية الأولى لإعلان دولة لبنان الكبير عبر المفوض السامي الفرنسي الجنرال "غورو"، والزيارة الثانية للرئيس "ماكرون" بعد الرابع من آب، وإعلان مبادرة إنقاذ لبنان المتهاوي والمنهار مالياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.

ترى هل حاولت الطبقة السياسية أن تقيّم ماية عام من حكمها لهذا البلد الصغير الذي كان سمي يوماً سويسرا الشرق في مقابل بلد قوارب الموت للهاربين من الجحيم؟ ولماذا أوصلوه الى هذه الحال؟ وهل قُدّر للبنانيين أن يعوا حقهم، ويعودوا لرشدهم، ولو لمرة واحدة، ويصمموا على ما يجب فعله لأجل إنقاذ أنفسهم وبلدهم؟ وهل آن الأوان لأن تنتفض كل جماعة على قادتها وزعمائها لعدم إثارة الفتنة الطائفية ؟ هذه الطبقة السياسية لم تستطع أن تنفذ بنداً واحداً أساسياً من إتفاق الطائف خلال ثلاثين عام وهو إنشاء الهيئة العليا لإلغاء الطائفية السياسية، حيث كانت الخسارة من المال العام حوالي ثلاثماية مليار دولار لعلها موجودة في حساب مئات الأشخاص فقط من اللبنانيين، والتساؤل اليوم بعد تكليف سعد الحريري بتشكيل الحكومة الجديدة بعد مضي عام على إستتلاليته بسبب الإنتفاضة، فما هو المعيار الجديد لشكل الحكم ؟ وهل هذا يعني أن الواقع في لبنان "فالج لا تعالج"؟.

وإذا كانت الطبقة السياسية عبر أحزابها وقواها السياسية، قد وافقت على المبادرة الفرنسية التي أعلن بنودها الرئيس إيمانويال ماكرون في قصر الصنوبر في بيروت ، حيث تضمّنت

إصلاحات مالية واقتصادية وادارية ومحاربة الفساد، في ظل تلويح بعقوبات تطال العديد من المسؤولين السياسيين. ترى هل تستطيع هذه الطبقة السياسية المتحالفة مع القطاع المصرفي وأربابه، من تشريع إصلاحات تطيح بها وبمكتسباتها؟ وإذا كان لابد من المحاسبة وإستعادة الأموال المنهوبة، فهل من المعقول أن يصار الى قرارات تؤدي بأكثريتهم الى السجون؟ أم كالعادة يتفننون بالتخلص من العدالة و يتهربون من المسؤولية؟ ويستمرون بالحكم والتسلط عبر سلاحهم الطائفي المشترك؟

ماية عام مرّت على إعلان الجنرال غورو لم تتمكن السلطات الحاكمة في لبنان إن لم نقل منعت وأعاقت قيام دولة بمؤسسات وإدارات قادرة على تطوير الكيان الى وطن، والسلطة الى دولة، والرعايا الى مواطنين، واللبناني الى مواطن يعيش حالة المواطنة بالإنتماء للوطن وليس لسلطة الطائفة والمذهب أو الحزب والزعيم، كما أن هذه الطبقة السياسية المتوارثة منها، والمستجدة من خلال الحروب الأهلية المتتالية، أو من خلال منظومات مالية واقتصادية، أتقنت كل أنواع الفساد حتى فتكت بإحدى أجمل اللوحات التي رسمها الخالق في أقدس بقعة من الأرض ، وحطمت اللوحة الطبيعية الخلابة على امتداد العشرة آلاف ونيّف من الكيلومترات المربعة، وهجّرت الطامحين لغدٍ أفضل، وقضت على الأدمغة القادرة على الإبداع وصدمت المفكرين والمثقفين الحقيقيين، وأصحاب الضمير والوعي والأخلاق والفكر المستنير، والذين يسعون الى أبسط حقوق الإنسان .

هؤلاء اللبنانيون الذين يتمنون أن يكونوا شعباً عظيماً، ومنهم من أثبت أهليته وقدرته الخلاّقة بعد ما عبر البحار وانتشر في كافة بقاع الأرض محققاً المعجزات في كافة مجالات الحياة، ومن بقوا في مدنهم و قراهم ليسوا أقل شأناً من المغتربين الذين يفخر العالم بهم وبإنجازاتهم، ولكن الطبقة والمنظومة الحاكمة عملت دوماً على تقطيع أوصال البلاد جغرافياً ودينياً كي لا

يكون هناك قوة شعبية متكاملة قادرة على النهضة و التغيير، فلا دستور بتفسير واحد يحتكمون اليه ، ولا نظام عادل يساوي بين من يتوقون للعدالة و المساواة ، ولا عدالة تعطي كل ذي حق حقه، والحكم التوافقي بدعة إبتدعوها لإستمرار سلطاتهم الجائرة تحت شعارات الحرية المنقوصة والديمقراطية التوافقية المزيفة.

ترى ما العمل في ظل مجتمع فقد مقوماته الإنسانية ، فالأحزاب العلمانية سقطت في إمتحان الحرب الأهلية، والأحزاب الطائفية إستغلت الدين بأبشع الصور والشعارات.

أما المثقفون فقد ضاعوا بأكثريتهم بين زواريب التطيّف والتمذهب إلاّ البقية القليلة التي تُقفل بوجهها كل الطرق المؤدية للإنقاذ، والنقابات التي كان يعوّل عليها منذ عقود سقطت في فساد الإنقسام و التحاصص. والحركات الطلابية التي عاشت عصرها الذهبي في ستينات وسبعينات القرن الماضي في قيادة الحركة الشعبية والمظاهرات المطلبية ، غرقت اليوم في وحول الأحزاب والزعامات .

أما المرأة التي تعب المكافحون و المكافحات من أجل نيلها حريتها وحقوقها الإنسانية، فقد غرقت في آتون منافع الرجل إلا القليلات اللواتي لازلن تصارعن التسلط.

الأدباء والشعراء والعلماء والمفكرون والنجباء... تلاشوا حيث لم يعد لهم مكان في هذا المجتمع الذي تفشى فيه الفساد، كما تفشى فيه وباء الكورونا في هذه الأيام الحالكة والسنوات العجاف.

والغريب أن لبنان الذي انطلق منه عظماء ورسل، أضاءوا سماء العالم، وشكلوا منارات، لازال المجتمع البشري ينعم بعطاءاتهم ومواهبهم الخلاّقة..

لبنان هذا الذي أعطى الأديب والفيلسوف جبران خليل جبران، والعالم المخترع حسن كامل الصباح، ورمال رمال، وميخائيل نعيمة مع كبار الرابطة القلمية، وشعراء المهجر، وبهاء الدين

العاملي، وبولس سلامة وطانيوس شاهين، ويوسف بك كرم، وبشير جنبلاط، كذلك سعيد عقل والشاعر القروي رشيد سليم الخوري والإمام الاوزاعي والسيد موسى الصدر، وكمال جنبلاط وفؤاد شهاب ورواد الحركة الثقافية في الندوة اللبنانية، والمجلس الثقافي في انطلياس، والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، والبطريرك هزيم بطريرك العرب، والبطريرك لحّام، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وأدهم خنجر، وأنطون سعادة، وسليم الحص، وعبد الحميد كرامي، وشهداء السادس من أيار 1916، وشهداء الانتفاضات والحركات المطلبية، ورواد المسرح والفن، ومدرسة الرحابنة عاصي وفيروز، ووديع الصافي ونصري شمس الدين ، وصباح وشوشو حسن علاء الدين وغيرهم الكثير من رواد من الزمن الجميل ...

كيف لبلد أعطى العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين والعلماء العظام في جبل عامل، بل كيف لبلد سطعت في سمائه مقاومة يفخر بها كل الأحرار ولازالت تشكل الأمل في الدفاع عن أرض الوطن وعرضه وحقوقه وسيادته، أن يصل الى هذا الدرك من الإنحطاط والفساد المعشعش في كافة اداراته ووسائل الحكم فيه؟ وهل يعقل أن إرث هؤلاء العظام الذين ذكرنا، والذين لم نذكر، والذين تركوا لنا إرثاً ينهض بأمة بل وأكثر، لم تستطع أن تستفيد من هذا الإرث العظيم، أن تنقذ شعباً قليلاً(خمسة ملايين نسمة). على مساحة صغيرة جداً(10452 كيلو متر مربع)؟ وعبر ماية عام لم تكفِ؟

الإنقاذ والنهضة و بناء الوطن مسؤولية تاريخية كيف؟...

صامدون الى الأبد صمود الأرز رمز الوطن